العرب
الثلاثاء 2021/10/19
السنة 44 العدد 12214

الروايات المثالية كتابات عبقرية غير معروفة لدى القارئ العربي

عبدالهادي سعدون: على العرب تجاوز «دون كيخوته» ثربانتس

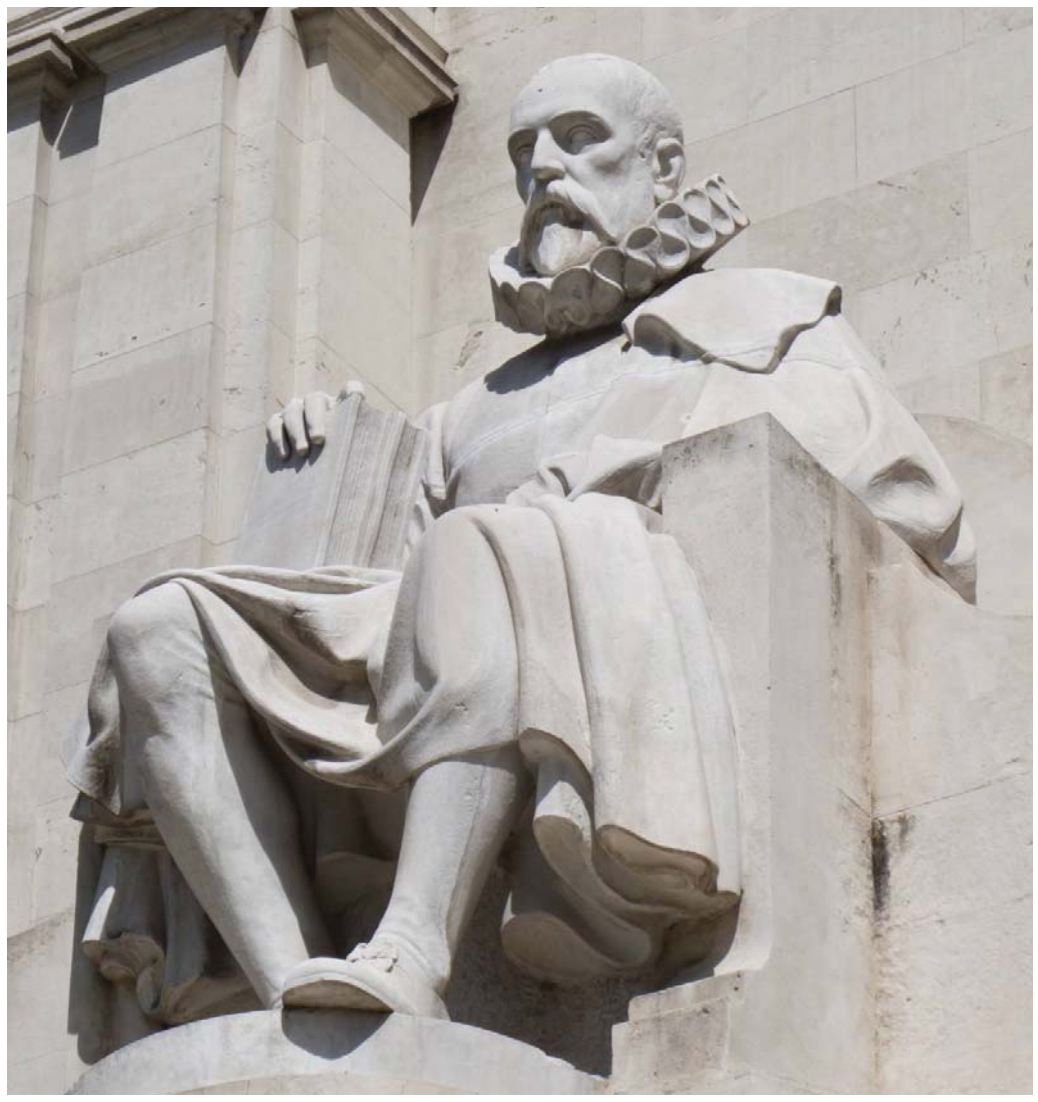

ثربانتس أحب العربية لكن أغلب أعماله لم تترجم إليها

يشكل مشروع الترجمة الجديد للروائي والمترجم العراقي المقيم في إسبانيا وأستاذ اللغة والأدب العربي في جامعة مدريد عبدالهادي سعدون، والذي يصب في ترجمة وتقديم أعمال الروائي والشاعر والمسرحي الإسباني ميغيل دي ثربانتس، إضافة مهمة للمكتبة العربية، حيث أثرت هذه الأعمال الإبداع الإنساني ولا تزال تؤثر في أجيال الكتابة شرقا وغربا. "العرب" التقت سعدون في حديث حول مشروعه الجديد.

محمد الحمامصي
كاتب مصري

يتهيأ عبدالهادي سعدون لإنجاز مشروع ضخم لإصدارات أعمال الروائي الإسباني ميغيل دي ثربانتس، ستصدر تباعا عن منشورات دار الرافدين ودار تكوين.

ويؤكد سعدون الذي ترجم من الإسبانية إلى العربية أكثر من ثلاثين كتاباً في الشعر والقصة والرواية والنقد لأسماء مهمة في الأدبين الإسباني واللاتيني -مثل بورخيس، لوركا، ماتشادو، ألبرتي وغيرهم- أن "الهدف الأهم من المشروع ترجمة نتاج ثربانتس غير المعروف للقارئ العربي من روايات قصيرة ومسرحيات وأعمال شعرية من نتاج مؤلف الرائعة الروائية 'دون كيخوته'. كذلك لا ننسى الكتب النقدية الكثيرة التي كتبت عن ثربانتس وحياته وأعماله الأدبية مما لم يصل إلى القارئ العربي ولا نعرف عنه شيئاً، وأعتقد أنه من واجبنا التعريف بها ونقلها إلى العربية، تلك اللغة التي أعجب بها ثربانتس وكال لها المديح مراراً خاصة وأنه قد جعل من العرب والمسلمين أبطالاً لجل أعماله الروائية والمسرحية".

الأديب الرائد

يقول سعدون في تصريحات خاصة لـ"العرب" إن "ميغيل دي ثربانتس كتب الروايات المثالية الاثنتي عشرة بعد انتهائه من الجزء الأول من روايته المعروفة عالمياً 'دون كيخوته'، والتي تُعدّ أول رواية معاصرة، والمؤسِّسة للرواية الأوروبية والعالمية الحديثة في آن واحد. صار من البديهيّ لدى القارئ العربي ذكر ثربانتس مقروناً بشكل دائم برائعته الكبرى 'الفارس النبيل دون كيخوته دي لا مانتشا' أو 'الدون كيخوته' كما هي معروفة اختصاراً في العالم أجمع".

> روايات ثربانتس المترجمة بمجملها تدخل ضمن حيّز الروايات القصيرة أو القصص الطويلة، وجلها مجهولة لدى القراء العرب

ويضيف "لكن مؤلفها الإسباني ميغيل دي ثربانتس قد ترك لنا أعمالاً أدبية لا تقلّ قيمة وثراء عن عمله الشهير كما سنطلع عليه في كتب المشروع التي تصدر تباعاً وبتنوع ما بين القصة والرواية والشعر والمسرح، ليشكّل مع كُتّاب آخرين قمة آداب عصرهم المعروف بالعصر الذهبي لإمبراطورية عظمى هي الإمبراطورية الإسبانية التي امتدّ مجدُها من القرن الخامس عشر حتى بدايات القرن العشرين".

ويتابع قائلاً "لدينا سجل أدبي رائع من نتاج عبقري الرواية ورائدها، لاسيما تلك الأعمال التي تناول فيها الشخصية العربية المسلمة وجدال النزاع الديني ومسألة الموريسكيين ومحاكم التفتيش والنزاعات الخفية والنظرة إلى الآخر بمنظار مختلف تماماً عن بقية أعمال المرحلة".

ويوضح سعدون "من المعروف اليوم، وبفضل العثور على وثائق ومستجدات عن حياة ثربانتس وعوالمه الأدبية، أن الكاتب لم يجد عن الواقع كثيراً، فالعديد من شخوص رواياته الخالدة قد رافقته في حياته وتعرّف عليها من نماذج بشرية. وهو في هذا لم يخرج عن نموذج الكاتب الواقعي في عصره، غير أن تجديده جاء في النمط الروائي نفسه، وفي تعدّد الصور الحكائية، وفي تناول الفرد والمجتمع، وفي لغته التهكمية والتجديدية الغريبة وغير المعروفة لدى كتّاب زمانه. ومن المسائل المهمة التي تجعلنا ندرك أهمية حياة وخبرة الكاتب ومدى إخلاصه للعمل الأدبي، اهتمامه الكبير الذي لم يفارقه في نتاجه الروائي خاصة التركيز على مصائر بشرية وأزمنة تاريخية حساسة، مع قراءة واعية ومحكمة تمنحنا نظرة نقدية متّقدة عن البشر وأهوائهم وهمومهم".

ويلفت المترجم والكاتب العراقي إلى أن ثربانتس خاض في مهن ومغامرات مختلفة، وشارك في حروب ونزاعات، وعاش تجربة الأسر وامتهن أعمالا متنوعة لسدّ الرمق وإعالة عائلة كان فيها الرجل الوحيد لعدة نساء. كلّ هذا قبل أن يسطّر لنا رائعته "دون كيخوته" تليها "الروايات المثالية".

ويبين أن الحال لم يختلف كثيراً بعد شهرته، على الأقل في أوروبا آنذاك، إذ عانى في سنواته الأخيرة من الفقر، وتجاهلته المحافل الأدبية بسبب الضغينة والغيرة. وهو في هذا لا يختلف عن أسماء معروفة في الفنّ والأدب، لم تحصل على عوائد شهرتها إلا وهي في القبور.

وفي هذا الشأن يرى سعدون أنه من الضرورة التقرب والاهتمام بما كتبه ثربانتس ليس في رائعته "الدون كيخوته" بل في مجمل النتاجات الأخرى، لنكون على بينة من أثر هذا الأديب العملاق على مسار الآداب قاطبة وتاريخ الأدب الإسباني على وجه الخصوص. من هنا لن يكتفي المشروع بأعمال ثربانتس الروائية فحسب، بل يتعداها ليشمل ما كتب عنه في كل المسائل الجوهرية ومنها علاقته بالعالم العربي الإسلامي من خلال حياته الشخصية أو من خلال أعماله الروائية والمسرحية.

الروايات المثالية

ويقر سعدون بأن هذه الروايات المثالية القصيرة التي يقدّمها تباعاً وفي كتب مستقلة الواحد بعد الآخر، كتبها ثربانتس في فترات متباعدة بين الأعوام 1590 – 1612 ونشرها عام 1613 عند ناشره خوان دي كويستا في مطبعته في مدريد بعد النجاح الكبير الذي حظي به الجزء الأول من "الدون كيخوته" (1605) وقبل سنتين من نشر الجزء الثاني (1615).

ويضيف "في مقدمة الروايات المجموعة في كتاب واحد عند صدورها يذكر ثربانتس أنه كتبها ليترك للأجيال ما يعظهم في حياتهم 'إذ لا تخلو أية رواية من هذه الروايات من نموذج أو مثال أو عظة أو فائدة أخلاقية'، ولهذا السبب سماها 'الروايات المثالية' أو 'النموذجية'، فالهدف الأعظم الذي جعله يكتبها هو توقيعه على مثال يساعد المجتمع والقارئ على النظر إلى الأمور نظرة أخرى. وثربانتس على أية حال ينجح في أغلبها بمنحنا تلك العظة والسمات المثالية التي رغب في تنويرنا بها. ولكن ليست كل رواياته ممتلئة بهذه الأمثلة والنماذج، بل إن بعضها كما سيرى القارئ لا تمتّ بصلة لهدف ثربانتس المعلن عنه في تقديمه للروايات، ولعله هنا أيضاً قد تقصّد الخروج عن النمطية المثالية حتى لا يتشبع بها القارئ ويميل عنها لهذا السبب أو ذاك".

ويشير سعدون إلى أن "الشيء الأهم الآخر الذي يطبع متن الروايات المثالية -وهو ما ذكره المؤلف في المقدمة العامة أيضاً- هو أنه أول من كتب هذا النمط من الروايات القصصية باللغة الإسبانية، وهذا تأكيد موثّق لا غبار عليه؛ إذ أن جلّ الروايات المعروفة بالروايات القصيرة أو النوفيلا المستوردة والمتأثرة بالنموذج الإيطالي السابق للنموذج الإسباني، التي نُشر أغلبها بالإسبانية سابقاً، إما عبارة عن محاكاة فجّة لرواية النوفيلا الإيطالية أو ترجمة لها من الإيطالية إلى الإسبانية دون أية تغييرات أو تنويعات دالّة. ومن هنا يُحسب لثربانتس قصب السبق في هذا المضمار، بل ويمكن أن نزيد عليها أنه قد أدخل الكثير من عناصر الواقعية المحلية الإسبانية ومعضلاتها وسماتها وطبيعة بشرها ومجتمعها، والتي زخرت بها الحياة في إسبانيا، لتكون المسرح الحقيقي والأساسي لمعظم رواياته المثالية".

ويوضح أنه من المعتاد بين نقاد أعمال ثربانتس والأدب الإسباني أن يقسّموا رواياته المثالية إلى قسمين رئيسيين: الروايات ذات الصبغة المثالية، والأخرى ذات الصبغة الواقعية، مع تداخل البعض مع عناصر المجموعة الأخرى دون عينة كبرى لتصنيفها ضمن هذه المجموعة أو تلك.

ويضيف "المثالية منها هي الأقرب إلى النموذج الإيطالي والتي تتميّز بمحتواها الرومانسي العاطفي وشجن علاقات الحبّ والمحبّين وهم شخوص نمطية لا تتصاعد وتيرة تطورها النفسي، وتكاد تكون أكثر بعداً عن محيط مجتمعها، وتتميز بأسلوب وإن كان رصينا إلا أنه يفتقر إلى الحيوية المطبوع بها أسلوب ثربانتس المعتاد. كما يعتمد سياقها العام على المصادفات الغريبة والنهايات غير المتوقعة وإن كانت لا تفتقر إلى روح ثربانتس الحكائية.

تدخل في هذا القسم الأول الروايات الخمس التالية: العاشق المتحرر، الفتاتان، الإسبانية الإنجليزية، السيدة كورنيليا، قوة الدم".

أما القسم الثاني فيضمّ، وفق سعدون، الروايات ذات الطابع الواقعي المتمثل في الشخوص والمناخات الوصفية الحيّة بوازع نقدي متعدّد الأصوات في أحيان كثيرة. ويتميز أسلوبها ببساطة الحبكة والثيمة والإكثار من عروض المشاهدات اليومية المباشرة بلغة قوية وسريعة ومرهفة. وهي الروايات السبع التالية: رينكونيته وكورتاديّو، الرجل الزجاجيّ، الغجرية، غيور أكسترامادورا، الخادمة الشهيرة، الزواج الخادع، حديث كلبين.

الروايات بمجملها، كما يرى مترجمها، تدخل ضمن حيّز الروايات القصيرة أو القصص الطويلة، والبعض منها أقصر من غيرها، وتتميز رواية "الغجرية" بكونها الأطول، بينما تتداخل روايتا "حديث كلبين" و"الزواج الخادع" بكونهما قصتين في رواية واحدة، أي الواحدة منهما بمثابة مدخل روائي مطول للشروع في قراءة الرواية التالية، مما دفع أغلب الطبعات الإسبانية إلى مزجهما في كتاب واحد أو عدّهما رواية واحدة بعنوان موحد أو عنوانين متشابكين.

معرض الرياض للكتاب يقدم عناوين «جريئة» تُسقط المحظورات

الرياض - بات لدى الطبيب الأردني محمود القدومي حرية أكبر في اختيار كتب "جريئة" خلال تسوقه بمعرض الرياض للكتاب الذي شهد انفتاحا غير مسبوق وتراجعا في الرقابة يتزامنان مع حملة الإصلاحات الاجتماعية والدينية التي تنتهجها السعودية.

فقد ضمت الرفوف كتبا عن العلمانية والصوفية والمسيحية والمثلية وروايات سياسية وأخرى عن السحر وغيرها من الموضوعات التي ظلّت محظورة لعقود في المملكة المحافظة.

ونظمت الرياض معرضها السنوي للكتاب على مدار عشرة أيام هذا الشهر وشهد مشاركة نحو 1000 ناشر من 30 دولة بحسب منظمي المعرض.

وقال القدومي الذي يعيش في الرياض منذ 10 سنوات إنّ "المعرض يشهد تغييرا جذريا وجرأة وحرية أكبر للاختيار" بعد أن كان يشهد رقابة لصيقة تستبعد موضوعات لا تتناسب مع الشريعة الإسلامية بحسب تقييم السلطات المعنيّة.

وأعرب القدومي عن "دهشته"، وقال "هناك كتب وروايات متوفرة عن الصوفية وهو أمر مخالف لما كان سائدا لعقود طويلة" في إشارة إلى رفع الرقابة على المطبوعات.

وتابع وهو يدفع عربة تبضع تحمل عدة كتب "من المفيد أن أجد آراء فكرية مختلفة عني تفتح الآفاق للإطلاع على معارف جديدة"، مشيرا إلى شرائه كتابا يروي قصة الخلق من وجهة نظر العلم فقط، وهو أمر غير مسبوق في المملكة التي تبنت لعقود تفسيرا متشددا للإسلام.

ومنذ تولي ولي العهد السعودي الأمير محمد بن سلمان لمنصبه في 2017، تشهد المملكة الثرية إصلاحات اقتصادية واجتماعية ودينية جذرية.

فقد سمح للنساء بقيادة السيارة وبتنظيم الحفلات الغنائية، ووضع حدّا لحظر الاختلاط بين الرجال والنساء. وقُلصت صلاحيات هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال وزير الإعلام السعودي المكلّف ماجد القصبي إنّ "المملكة تعيش تحولا غير مسبوق والكتاب بلا شك في قلب هذا التحول (...) الانفتاح وصل إلى الثقافة والكتاب".

وأكّد الوزير "لم يعد من الممكن حجب الكتب في زمن الكتب الإلكترونية" التي أوضح أن القراء يتناقلونها عبر الهواتف المحمولة.

وبحسب عضو لجنة كتّاب الرأي السعودية سعود الكاتب فإنّ "سقف الحرية مختلف تماما" في دورة معرض الكتاب هذا العام مقارنة بالنسخ السابقة وآخرها في 2019.

وفي 2014 نقلت أخبار عن صحيفة سعودية أن الجهة المنظمة للمعرض صادرت في تلك السنة أكثر من عشرة آلاف نسخة من 420 كتابًا.

واسترجع الكاتب وهو أحد مسؤولي تنظيم معرض الكتاب في جدة عام 2015 كيف كان مطاوعو هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "يدخلون الفعاليات الثقافية ويحاولون وقفها وكذلك منع مشاركة النساء"، وهو ما قال إنّه بات "شيئًا من الماضي".

وفي خضم التغييرات الأخيرة في المملكة، خسرت الشرطة الدينية الكثير من نفوذها وتقلصت صلاحياتها إلى حد بعيد بعدما كانت تجوب الطرقات والمراكز التجارية وتفرض على السكان إغلاق محلاتهم أثناء فترات الصلاة.

وقال مدير دار الحلم المصري الناشر إسلام فتحي الذي يشارك سنويا في معرض الرياض "هذا العام أحضرنا كتبا لم نكن نفكر حتى في طرحها في السعودية".

وأوضح أنّ على رأسها "روايات الأدب الروسي التي كانت ممنوعة بسبب واقعيتها وانحيازها للطبقات العاملة والفقراء"، فيما بدت وراءه روايات دوستويفسكي وتولستوي على الرفوف البيضاء.

كما عرضت الدار أيضا روايات سياسية تتحدث عن قمع الأنظمة وأساليب تحكمها في الشعوب مثل روايتي "مزرعة الحيوانات" و" 1984 للكاتب الإنجليزي جورج أورويل.

وأفاد ثلاثة شباب سعوديين في المعرض أنّ الكتب الممنوعة كانت تصلهم سابقا عبر التهريب لكنها أصبحت متوفرة الآن.

ولم يلق هذا الانفتاح سوى معارضة محدودة عبر وسائل التواصل الاجتماعي. فغرّد مستخدم على تويتر كاتبا "مُحتوى مُخجل"، فيما سأل آخر "أين الوعي؟ أين الرقابة؟".

معرض الرياض الدولي للكتاب
Riyadh International Book Fair

> معرض الرياض الدولي للكتاب يكرس الانفتاح والحرية ويقدم عناوين متنوعة في الأدب والفكر كانت ممنوعة سابقا

ورأى الشاب السعودي عبدالعزيز التركي الذي كان يرتاد مقهى في الرياض أنّ "بعض الكتب المطروحة صادمة ولا تتناسب أبدا مع الموروث الثقافي للبلاد".

وأكد أربعة ناشرين أن قوائم الكتب التي أرسلوها إلى السلطات تمت الموافقة عليها كاملة. لكن رغم الانفتاح الواضح، أبدى بعض الناشرين حذرا.

وقال مسؤول في دار نشر لبنانية فضّل عدم ذكر اسمه "سابقا كان هناك تشدد كبير في دخول الكتب. كانت تعرض على وزارة الإعلام لبيان إذا كانت توافق الشريعة أم لا".

وتابع "الآن نجلب كتبا أكثر انفتاحا لكن بحدود، إذ باتت لدينا رقابة ذاتية. لا أحد يريد المخاطرة حتى لا يتعرض لخسائر مادية كبيرة" إذا صودرت شحنات الكتب.

وقال مسؤول آخر في دار نشر مصرية "لا يزال هناك تخوف لدينا لأن بعض الأمور غير واضحة وهو ما يدفعنا إلى ممارسة رقابة ذاتية".

وأوضح أن أشخاصا صادروا نسخا من كتاب "خطة الله في إدارة الكون" دون أن يقدّموا أسبابا.

لم تعد هناك كتب ممنوعة على السعوديين